الفصل الثالث

مشكلة الصفات
بين الحقيقة والمجـاز *

* هذا البحث قدم في ندوة الجمعية الفلسفية المصرية الندوة الثالثة "نحو علم كـلام جديد" سنة ١٩٩١ ، ونشر في مجلة التربية المعاصرة (١٩) سنة ١٩٩١ م .

مقدمة :

قبل الخوض في مشكلة الصفات أود أن أبدأ بمقدمة بسيطة حول التجديد بين الحقيقة والوهم ، وعندما نقول نحو علم كلام جديد فالتوجه نحو التجديد ينم عن الحاجة إلى التغيير ، وقد يكون التغيير جزئياً ، أو كلياً ، والجزئية والكلية تتعلق بجوهر التغيير صوري أم حقيقي إصلاحي أم ثوري ، وأيا كان الأمر فالحاجة إلى التغيير هى تعبير عن أزمة ، وكل أزمة هى تعبير عن تناقض واقع ، فالأزمة وحدة تناقضية بحاجة إلى حل ، وقطباً التناقض في أزمتنا المعاشة هما الأصالة والمعاصرة والصراع بينهما يكشف عن حاجة الواقع الملحة للتغير والتطور ، والواقع في توصيفه القائم من حيث بنيته الاجتماعية والفكرية لا يستطيع فض الصراع بين الموروث والمعاصر ذلك أن الواقع في غيبوبة من الوعي فقد انتفت منه كل معطيات التنوير ومبادئه وأسس تثويره بفعل قوى الوعي المزيف الذي تسيده الدوجما الدينية بقطبيها السلطوي والاجتماعي منذ القرن الخامس الهجري حتى عصرنا الحاضر على الجماهير الشعبية ، فتشبعت العقول بالأوهام في رؤى دينية حول الإنسان والله والعالم ، فصارت الجماهير سداً منيعاً يصعب على الحداثة اختراقه .

وهنا تأتى مسئولية التجديد ويعظم دوره . ولكن هناك خصائص محددة للتجديد إن كان حقيقياً ، تلك الخصائص هى : القدرة والجرأة على البحث في جذور الوهم وهز المطلقات الموروثة الجاسمة على عقولنا وأفكارنا وواقعنا ، وأن يكون التجديد بقادر على الإعلاء من شأن العقل ليصبح لا سلطان على العقل إلا العقل ذاته ليكون العقل سلطة النظر والعمل والعلم والواقع ، وأن يكون التجديد بقادر على إنزال البحث الفلسفي من السماء إلى الأرض ، من الله إلى الإنسان من العابد إلى العامل .. فيكون التجديد بذلك قادر على وضع

رؤيـــة مســـتقبلية نسترشد بها في خطى التقدم نحو الحياة الإنسانية ، ويكون التجديد بذلك نزعة إنسانية ، تقدس وجود الإنسان وحريته ومصيره .

وفي ضوء هذه السمات التي تشكل المضمون الأساسي للتجديد إن كان حقيقـياً وثوريـاً نـنظر في مشكلة الصفات بين الحقيقة والمجاز ، وجوهر الأشـكال فـي قضية الصفات هو حقيقة الصفات ذاتها ، وهل هى إلهية أم إنسانية ؟ والنظر في هذا الجوهر هو الذي يشير إلى إمكانية تجديد موضوع علـم الكـلام ، وإن كـان رفع شعار التجديد سعياً حقيقياً وليس مفتعلاً فإن الـتجديد يجـب أن يغـزو لب وصميم الموضوع ذاته أي إطاره النظري . وبدون إعادة النظر في الإطار النظري فلا جديد ولا تجديد .

ويـدور الأشكال الحقيقي في قضية الصفات وهل هى إلهية أم إنسانية حول أربعة تساؤلات أساسية :

أ - هل الصفات في الله على الحقيقة ، وفي الإنسان على الحقيقة ؟

ب - هل الصفات في الله على الحقيقة وفي الإنسان على المجاز ؟

ج - هل الصفات في الله على المجاز وفي الإنسان على المجاز ؟

د - أم أن الصفات في الله على المجاز وفي الإنسان على الحقيقة ؟

ومـا أسـعى إليه من النظر في هذه التساؤلات هو أن نلمس معنى أن تكـون الصـفات في الله حقيقة وفي الإنسان مجازاً ؟ وهل الحقيقة إلهية أم إنسانية ؟ لهذا سعيت أولاً إلى الكشف عن موقف القدماء من هذه الإشكاليات ، وثانـياً النظر في موقف بعض محاولات التجديد المعاصرة [1] لنرى بأي الآراء يلتقون وبأي موقف يلتزمون .

---

(١) حسـن حنفي حسنين ، من العقيدة للثورة ، ج ١ المقدمات النظرية ، ج ٢ التوحيد ، ج ٣ العدل ، ج ٤ النبوة والمعاد ، ج ٥ الإيمان والعمل والإمامة ، مكتبة مدبولي .

أولاً : موقف القدماء والتجديد المعاصر من مشكلة الصفات بين الحقيقة والمجاز:

لـــم تحتل مشكلة الصفات بين الحقيقة والمجاز مساحة متسعة في كتب القدمـــاء على نحو ما نرى في مشكلة العلاقة بين الصفات والذات ، وضيق المســـاحة وإيجاز الكلمات ليس دليلاً على هامشية القضية بقدر ما هو إشارة إلى أهميتها وأبعاد الخوض فيها ، ونتائجها على الإنسان والألوهية . خاصة وأن قطـــبا القضـــية .. الإنسان والله . فأيهما الحقيقة وأيهما المجاز ؟ أيهما الخـــيال وأيهما الواقع ؟ وما معنى أن يصير الإنسان مجازاً ؟ وما دلالة أن يصـــير الإنســـان حقيقة ؟ وفي أي واقع يكون الإنسان حقيقة ؟ ومتى يكون الإنسان حقيقة ؟ ومتى يكون الإنسان مجازاً ؟

وهذه القضايا تتكشف أبعادها في عرض مناقشة التساؤلات الأربعة التي تشـــكل محـــاور الإشكال الحقيقي في قضية الصفات بين الحقيقة والمجاز ، وهل هي صفات إلهية أم إنسانية ؟

(أ) يرى أكثر القدماء من أهل الكلام " إن البارى عالم ، قادر ، حيى ، سميع بصير في الحقيقة ، والإنسان أيضا يسمى بهذه الأسماء في الحقيقة " (١). ويرى أهل التجديد المعاصر أنه " لو كانت الصفات في الله على الحقيقة ، وفي الإنسان على الحقيقة لكان هذا مستحيلا ، وهو مستحيل لأنه لا يمكن إدراك الله في الحقيقة ، ولا يمكن تصوره إلا بقياس الغائب على الشاهد ، ولا يمكن أن تكون الصفات في الله وفي الانسان معا ، لأنها لا يمكن إن تقوم كلها على قياس الغائب على الشاهد ، والله هو الغائب ، والإنسان هو الشاهد ، وهو اكثر تواضعا ، واقرب إلى الواقع . فالإنسان لا يعرف إلا

(١) ابـــى الحسن على بن اسماعيل الاشعري / مقالات الإسلاميين و حتلاف المصليين ج ١ ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ٢٤١ .

نفسه ، ولا يقيس الآخر إلا على ذاته ، طبقا لقياس المجهول على المعلوم " [1] .

ومـــا يـــراه المجدد هنا إن رأي القدماء هذا مستحيل ، ووجه الاستحالة لديه مردود إلى أمرين :

الأمر الأول : هو طبيعة المعرفة الإنسانية ، فهي ومن ثم معرفة نسبية ويبدو فيها كل تصور للمطلق من إطار النسبي هو تصور للنسبى ، وليس للمطلـــق ، أي أنه في حقيقته تصور أنساني للألوهية ، ومعنى هذا إن الصـــفات الإلهـــية مـــا هى إلا صفات إنسانية خالصة وليست أوصافا لإله موجود بالفعل ، وهو لا يخرج من كونه حديثاً إنسانيا

إمـــا الأمر الثاني : فهو يشير إلى منهجية النظر في قضية الصفات والذات الإلهية ، وهو منهج قياس الغائب على الشاهد ، وهو قياس إنساني خالص يجعل الحقيقة إنسانية ، والإنسان هو الحقيقة ، وهو الشاهد ، والله هـــو الغائب وقياس الغائب عل الشاهد يعنى إن الإنسان لا يدرك إلا صفاته وما يزعمه من حقيقة هو حقيقة ذاته .

(ب) وإذا كـــان الرأي الأول يرى الصفات في الألوهية والإنسان حقيقة فهو لا يـــود التضـــحية بالإنسان في مقابل الألوهية ، بل يضع الطرفان على مستوى الحقيقة ، وهو وضع مستحيل منطقياً وواقعياً ، فان الرأي الثاني يقـــذف بالإنســـان مـــن حالق ويحيله مجازا ، فلا حقيقة إلا لله وهو رأي الناشـــيء حيث يقول : الباري عالم قادر حي سميع بصير ، قديم عزيز ، عظيم ، جليل ، كبير فاعل في الحقيقة ، والإنسان قادر عالم حي سميع بصـــير فـــاعل في المجاز وكان يقول أن الباري شئ موجود في الحقيقة

(١) حسن حنفي ، من العقيدة إلى الثورة ، ج ٢ التوحيد ، مكتبة مدبولي ، ص ٦٠١ .

والإنسان شيء موجود على المجاز ... وإذا قلنا أن البارى عالم قادر حي سميع بصير ، فلا يجوز إن تكون وقعت هذه الأسماء عليه لمشابهته لغيره ... لأنه لم يزل عالم قادر حيا بصيرا قبل كون الأشياء ، فلم يبق إلا أن الأسماء وقعت عليه وهى فيه بالحقيقة ، وفي الإنسان بالمجاز [1]

وهنا نرى أنه إذا كان الإنسان خيالاً وليس حقيقة ، مجازاً وليس واقعاً كيف يستطيع الناشئ أن يقرر أن الصفات في الله حقيقة وإنها في الإنسان مجازاً ، فهل المجاز يحكم على الحقيقة ؟ وهل الخيال يحكم على الواقع ؟ إنه منطق مقلوب عند ابن الناشئ يحيل الحقيقة مجازاً والمجاز حقيقة ، ويناقض بالتالي منطق قياس الغائب على الشاهد ، ويدعى وعى مستحيل ولهذا يؤكد التجديد المعاصر " إن قول الناشئ إن الصفات في الله على الحقيقة وفي الإنسان على المجاز ، هو ما يناقض أيضا قياس الغائب على الشاهد وهو ادعاء لانه لا يوجد موضوع واقعى توجد فيه الأشياء على الحقيقة ، ويمكن معرفة أسمائه ، فكل الذي يوجد هو الانسان ، فالإنسان لا يعرف إلا ذاته بتجاربه الباطنة حقيقة لا وهما " . [2]

(ج) وإذا كان الناشئ سلب الإنسان حقيقته ، فإن الموقف الثالث يسلب الحقيقة كلية من الله والإنسان معا ، فهذا وذاك ليس إلا مجازاً ، وهو رأي يعبر عن يأس قاتل وعجز يجعل الإنسان فاقد لقدراته وصفاته وإنسانيته ، أن تكون الصفات في الله على المجاز ، وفي الإنسان على المجاز ، وهو ما يناقض معرفة الإنسان لنفسه حقيقة ، وإلا وقعنا في النسبية والشك والوهم واللاأردية ، الإنسان موجود على الحقيقة وصفاته على

---

(١) أبى الحسن على ابن إسماعيل الأشعري ، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ج ١ ، ص ٢٤٠ ، ص ٢٤١

(٢) حسن حنفى ، من العقيدة إلى الثورة ج ٢ ، التوحيد ، ص ٦٠١ .

الحقيقة وليست على المجاز ، بل إن إثبات الصفات للإنسان على الحقيقة تحصيل حاصل ، لأن الإنسان يعلم ويقدر ويسمع ويبصر ويتكلم ويريد ، ولا ينكر أحد من البشر ذلك إلا في بعض النظم الاجتماعية التي تقوم على القهر والغلبة ، والتي تنكر سمع الإنسان وبصره ، وكلامه وقدرته ، بل تنكر حقه في ذلك " (١) .

(د) وثمة قول آخر يبدو أقرب إلى روح التجديد المعاصر وهو قول ابن الأيادي " إن الباري عالم قادر حي سميع بصير في المجاز ، والإنسان عالم قادر حي سميع بصير في الحقيقة ، وكذلك سائر الصفات " (٢) ، ويمكن تأييد موقف ابن الأيادي وتعليله ، وان تكون الصفات في الإنسان على الحقيقة وفي الله على المجاز ، لأن الإنسان له سمع وبصر وكلام ، ثم يسقط الإنسان خصائصه على غيره في ظروف نفسية واجتماعية معينة ، مثل العجز والقهر والظلم ويدفعها إلى حد الإطلاق ، ثم يعبر بالصورة الفنية عن هذه الصفات لمزيد من التأثير على النفس والقدرة على الابلاغ " (٣) .

ويبرز هذا الرأي أمامنا موضوعات **ثلاثة** : **الأول** إن الحقيقة إنسانية والإنسان هو الحقيقة وليس مجازاً ، **وثانياً** إن الإنسان يتمتع بكل صفات السمع والبصرة والقدرة والإرادة ... إلخ ، **وثالثا** إن الإنسان كحقيقة واقعة لا يعيش في السماء ، بل في ظل نظم اجتماعية متباينة ، قد تجهض إنسانية الإنسان وصفاته وقدراته وإمكانياته إلى حد يتساوى فيه وجوده وعدمه ، ومن ثم لا مجال للسمع والبصر ولا للكلام ولا للعلم ولا للإدارة ، بل يصبح

---

(١) حسن حنفي ، التوحيد ، ص ٦٠٢ .

(٢) أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعري ، مقالات الإسلاميين ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .

(٣) حسن حنفي ، التوحيد ، ص ٦٠٢ .

إنسانا مغتربا عن حقيقته وصفاته ووجوده ، ومتى اغترب الإنسان عن وجوده الحقيقي وسلبت منه ذاته وصفاته سعى بالخيال إلى عالم آخر هو عالم الألوهية يتصور فيه الله قادر سميع بصير عالم مريد ... إلخ . أي أن الإنسان يسقط كل صفاته الحقيقية التي يجب إن يتمتع بها والتي يضحي بها إنسانا كاملا على الله ويضخم الإنسان من صفاته المسقطة ليصل بها حد الإطلاق ، ويرسم عالم مثاليا بعيد المنال ، تهفو ذات الانسان إليه ، تقديسا وعبادة وتبهلاً وتدرعاً ... إلخ طالما وقد افتقده في واقعة ووجوده ومجتمعه .

وهذا التباين والاختلاف في الرأي بصدد قضية الصفات إن دل على شيء إنما يدل على نسبية الحقيقة وإنسانيتها ، وإن مشكلة الذات والصفات مشكلة إنسانية ذلك إن " تحليل التجارب الإنسانية يكشف عن أساس مشكلة الذات والصفات في الشعور وبنيتها في الذهن إذ ترجع مشكلة الذات والصفات إلي قسمة الذهن ، والأشياء إلى جوهر وعرض ، فكما إن الجوهر حامل للأعراض، تكون الذات حاملة للصفات ، وقسمة الأشياء إلى جوهر وعرض قسمة ذهنية يسقطها التصور مرة في الإلهيات ، ومرة في الطبيعيات ، ومرة في الإنسانيات، وفي الأفعال . وكل هذه الصفات إذا مجرد أسماء عبر بها الشعور الناطق عن عملية التنزيه وعن حالاته دون أن يشير بها إلى أي مضمون شعوري أو إلى وجود واقعي . فكل الصفات في الحقيقة ألفاظ صاغها الشعور للتعبير بها عن عملياته . هى أقوال وعبارات تدل على موقف ذاتي خالص تعبر عن أماني وعواطف إنسانية دون أن تشير إلى أي شيء في الواقع . ولكن نظرا لشدة العواطف وصفاء التنزيه تخلق الكلمة

الشـــيء وتـــتحول الذاتية إلى موضوعية تحول ذاتيا افتراضيا خالصا وليس تحولا حقيقيا بالفعل " [1] .

ومعـــنى هـــذا في حقيقة الأمر أن الصفات هى صفات إنسانية خالصة فالإنســـان هو العالم والقادر والحي ، والإنسان هو السميع والبصير والمتكلم وتلك الصفات تشكل الوجود الحقيقي للإنسان ، أي تشكل إنسانيته ، فإن قلنا بأنها في الإنسان مجازا فقد سلبنا الإنسان وجوده وحقيقته ، واحلنا صفاته إلى مجرد أماني وغايات قصوى يتمنى تحقيقها ، غير أن ذلك عليه محالا لأنها متى سلبت من الإنسان ووصف بها الله أصبحت على الانسان بعيدة المنال . ومكث الإنسان في جهل وعجز أعمى ، أبكم ، أصم ، بل تخلق في الإنسان الشعور بالدونية وفقدان الثقة بالنفس وإمكانياته وقدراته ، وكل ذلك لا يحدث إلا فـــي ظـــل ظروف اجتماعية وسياسية ، يقوم وجودها وبقائها ولا تثبت أركانها إلا متى أضحي الإنسان عاجزا مسلوب القدرة والإرادة ، مغترباً عن وجوده وصفاته وقدراته مغتربا عن إنسانيته .

ثانياً : الخاتمة :

١ - عرضـــنا لمشكلة الصفات بين الحقيقة والمجاز ووضحت أبعادها على الإنســـان والله . الحقـــيقة إنســـانية والإنسان هو الحقيقة . والصفات موجـــودة فـــي الإنسان على الحقيقة ، ولا تضحي صفات الله إلا متى اغترب الإنسان في ظل نظم اجتماعية وسياسية غير إنسانية ، وتجد هـــذه النظم في قلب المجاز حقيقة والحقيقة مجازاً سبيلاً لبقائها وتثبيت أركانها .

---

(١) حسن حنفي ، التوحيد ، ص ٣٧١ .

٢ – وما نخلص إليه من مشكلة الصفات بين الحقيقة والمجاز أن تجديد علم الكلام عند أهل التجديد الحديث يقوم على محاور ثلاثة تنبع من إطار نظري معرفي جديد مضمونه الطبيعة ، والإنسان ، والتاريخ .

– **المحـــور الأول** : لب الكلام القديم وموضوعه هو الذات الإلهية صفاتها وأفعالهـــا ، فـــإن كان لنا توجه نحو علم كلام جديد ، أليس من المنطق والعقل ، بعد أن وضح لنا أن مشكلة الصفات مشكلة إنسانية لها أبعادها المعرفـــية والاجتماعـــية والسياســـية المترابطة معاً ، أن يكون الإنسان ووجـــوده وأفعالـــه ومصيره في هذا الواقع المعاش في هذه الأرض هو موضـــوع علم الكلام الجديد ؟

– **المحور الثاني** : إن اعتبرنا الإنسان واقعا وحقيقة موضوعا لعلم الكلام الجديد ، فإننا ومن ثم لا ندرسه قياسا لان الانسان واقع وحقيقة له أبعاد نفســـية واجتماعية وسياسية واقتصادية يترابط النظر فيها ، متى اصبح الانسان هو موضوع العلم والدراسة .

– **المحور الثالث** : هو المسعى والهدف من علم كلام جديد ، بعد أن أصبح موضوعه هو الإنسان الذي ندرسه بمنهج تحليل اجتماعي شامل الأبعاد ، أن يكون المسعى هو تغيير الواقع الإنساني من قهر وظلم وتسلط إلى واقـــع يســـعد فـــيه الإنسان بإنسانيته حقيقة وتسوده العدالة والمساواة ، والحـــرية وتنتفـــي كـــل قيود تكبل عقل الإنسان وحريته ووجوده أي المحرمات الثقافية ، السياسية ، والجنس ، والدين .

٣ – ومـــتى أضحي الموضوع جديدا ، والمنهج جديدا ، والمسعى جديدا ، أصـــبحت تسمية علم كلام جديد بحاجة إلى تجديد ، ليصبح علم إنسان جديـــد . وقـــد كـــان الانسان مغتربا في العلم القديم وبرز الآن واقعا

ووجـــودا وحقـــيقة في العلم الجديد (علم الإنسان) وهذا العلم الجديد موضـــوعه حقـــيقة وليس مجازا ، منهجه تحليلا ، وليس قياسا مسعاه واقع الانسان ومستقبله ومصيره على الأرض وفي مجتمعه ، وإطاره النظري ليس غيبيا ، بل علميا .

٤ - وخـــتام كـــل مـــا قيل كلمة بسيطة لا أحيلها إلى مجدد ، ولكنها درس مســـتفاد من تاريخ الفكر الإنساني ، وهو أننا حينما نتجه بالبحث إلى تجديـــد علـــم الكـــلام أو العلوم الدينية ، شأننا في ذلك شأن من يترك الأصـــل ويمسك بالفروع والأهداب ، لأننا إن كنا نود التطور الحقيقي فـــي فكـــرنا وحياتنا وواقعنا ، فإن النقد يجب أن يقتحم وبجرأة النص الديني مباشرة .

ومـــبرر هذا الرأي أنه من المستحيل أن تجدد العلم تجديدا كيفيا دون تغيـــير الإطار النظري الذي يحكم تصورات هذا العالم عن الطبيعة والكون والإنسان .